خلع عبد الحميد

اسباب الفتنة العسكرية

قال صاحب كتاب سقوط عبد الحميد ان تمرُّد الجنود الذي حدث في الاستانة في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ ودعا الى خلع عبد الحميد هو اهم الحوادث التي حدثت في المملكة العثمانية واغربها فانهُ لولا ذلك التمرُّد لما ساد حزب الاتحاد ولو برهة وجيزة ولا حدثت مذابح اطنه ولا زحفت الجنود من مكدونية على الاستانة ولا خُلع عبد الحميد . لكن سبب ذلك التمرُّد غير معروف تمامًا او ان الذين يعرفونهُ لا يريدون ان يبوحوا به او انهم قُتلوا او نفوا او دهشوا بتعاقب الحوادث التي تلت ذلك حتى تعذَّر عليهم الكلام . ومن رأي الكاتب ان للتمرُّد اكثر من سبب واحد وان من اسبابهِ الاموال التي رشا بها عبد الحميد الجنود . لكن اثبات ذلك اثباتًا ينفي كل ريب متعذِّر لان المجلس الحربي لم يعلن ما اكتشفهُ من هذا القبيل ولو ان الامور التي ذاعت تثبت التهمة اثباتًا يكاد ينفي كل ريب فقد اعترف نادر آغا انهُ رشا الجنود لكي يجاهروا بالعصيان وايد الباش آغا اعترافهُ هذا . ووُجدت في بلدز تقارير (جرنالات) كثيرة تثبت ذلك مثالهُ ان طيار بك المستشار السابق كتب في تقريره الى عبد الحميد ما ترجمتهُ « ان اكثر الجنود في حامية الاستانة وافقوا على التمرُّد برئاسة مولان زاده رفعت ويمكننا ان نثبت ذلك لشوكتكم اذا اردتم وسيتقضون بعد قليل على الجمعية فعبوديتي لشوكتكم تضطرني الى القول بان لا بدَّ لكم من الانفاق بسخاء »

وقد ورد طلب المال في تقريرهِ او جرنالهِ مرارًا كقولهِ « اذا اردتم ان تنجحوا وتعرفوا كل ما هو جارٍ فلا بدَّ لكم من انفاق المال بكثرة » وكقولهِ « ان عون الله وفتح الله لا يتقان بجلالتكم اذا لم ترسلوا خادمكم غالب بك بخمس مئة ليرة » وكقولهِ « اذا لم تنفقوا فستميل على هذا العبد ان يتحمل المسؤولية ويبقى في الخدمة » . وكقولهِ « اذا لم تساعدوا بالمال هذه الجمعية (الجمعية المحمدية) كانت العاقبة وخيمة جدًّا وكونوا على ثقة ان لا احد يعلم ان المال منكم »

وقال توفيق بك في تقرير (جرنال) لهُ ما ترجمتهُ « ان المبعوثان الذين ظهروا بمظهر العدوان لشوكتكم سيتأصلون قريبًا وقد عملت ذلك الآن بعد البحث فلتطمئن ذاتكم المقدسة »

لكن وجود هذه التقارير لا يثبت ان الفتنة كانت من تدبير عبد الحميد اذ يحتمل انها

كانت من تدبير غيره والذين دبروها توسلوا اليه بها لطلب المال منهُ . ولما كان احساسهُ من جمعية الاتحاد والترقي شديداً جداً وافق المدبرين على تدبيرهم احتفاظاً بحياته لا سيما وان اخصاءهُ كانوا يحرّضونهُ من الجمعية ومما يؤيد اطلاعهُ على تدابير المتمردين انهُ لم يبدِ اقلّ اضطراب لما سمع بظهور التمرّد وانهُ بادر الى العفو عن الضباط المتمردين

وقد قال شوكت باشا للكاتب مرتين ان عند المجلس الحربي ادلة قاطعة على ان الفتنة حدثت بدسائس عبد الحميد وقال لهُ مختار باشا انهُ ليس في النية نشر هذه الادلة ابداً . واستنتج الكاتب من ذلك ان نشرها يضرُّ بكثيرين من رجال الدولة وربما اضرَّ باكثر من واحد من رجال السياسة الاجانب في تركيا

ولكن كامل باشا يعتقد انهُ لم يكن لعبد الحميد يد في الفتنة لانهُ شديد الخوف على نفسهِ وغاية ما يتمناهُ ان يبقى على عرشهِ ولو زالت السلطة من يدهِ

ومن رأي الكاتب ان الادلة متوفرة على ان التقرير التي وجدت مع الجنود هي من عبد الحميد . وقد اخبرهُ توفيق فكرت بك الشاعر مدير مدرسة غلطة سراي في شهر فبراير اي قبل الفتنة بشهرين ان عبد الحميد سحب من البنوك مليوني ليرة . وخيف حينئذٍ ان يرسل بها الى اليمن ليتوسل الثوّار على رجال الدستور وبعد قليل اشارت جريدة سربستي الى ذلك ثم انقلبت الى تملّق عبد الحميد . وفي التاسع من ابريل كتب مكاتب التيمس من ڤينا « ان كثيرين من العارفين في الاستانة ينسبون حملات جريدة سربستي وجريدة اخرى غير تركية على جمعية الاتحاد والترقي الى تأثير بعض المعاهد المالية التي تود ان تقلل ثقة الناس بالجمعية »

وكتب علي كمال بك محرر اقدام الى صديق لهُ في الاستانة معتقداً بانهُ اخذ عشرة آلاف ليرة من عبد الحميد قبلما هرب من تركيا في نصف ابريل

اما الجمعية المحمدية فلم يكن لها من صبغة الدين غير الاسم ومؤسسوها كلهم من غير رجال الدين الاَّ الدرويش وحدتي وهو من البكطاشية وهي ابعد الطرق عن التعصب الديني لكن هذه الجمعية اتخذت النداء بالشريعة شعاراً لها فانضم اليها كثيرون حتى وجد المجلس الحربي ٥٤٣ من اكبر المحرضين على الفتنة من اعضائها وكان اقدرهم نازلما لكنهُ نجا من القتل بارشاده الى الاماكن التي اخفى فيها عبد الحميد اموالهُ

وقد نشأت الجمعية المحمدية قبل الفتنة بضعة اسابيع والمرجح انها نشأت بايعاز عبد الحميد ولكن لا يمكن اثبات ذلك بالدليل القاطع . وكان مراد بك من اعضائها وقاربهُ

معروف في هذا القطر فانهُ اتى الى هنا وانشأ جريدة ميزان وكان يقول ان مقالاته لتقيم عبد الحميد وتقعدهُ ثم ذهب الى باريس فارسل عبد الحميد من استرضاهُ وعاد بهِ الى الاستانة . ولما حدث الانقلاب في شهر يوليو ونودي بالدستور اراد ان ينضم الى جمعية الاتحاد والترقي فلم تقبلهُ فسخط عليها وعاد الى اصدار جريدتهِ ميزان وجعل يحمل فيها على الجمعية حملات منكرة ويدعو المؤمنين الى التمسك بالشريعة الغراء التي انتهكت الجمعية حرمتها حسب دعواهُ . فصار النداء بالشريعة شعار كل ناقم على الجمعية او خائف منها وجعلت جرائد بلدز مثل ميزان وفلكن وسربستي تحاول اقناع الجنود بان ضباطهم معطلون لا دين لهم وان اكثر المبعوثان يكرهون الاسلام واتهمت جريدة ميزان احمد رضا بك بالكفر وقالت سربستي ان ليس لاحد من اعضاء تركيا الفتاة دين ولا معتقد وانهم عازمون ان يضطروا العثمانيين الى رمي الطربوش وليس البرنيطة وادَّعت ان الكفرا لا ترضى عن تركيا ما لم تستأصل منها جمعية الاتحاد والترقي

ومن رأي الكاتب ان الاحرار كانوا يضربون على وتر الجمعية المحمدية كما يستدل من لهجة جرائدهم فقد قالت يني غازت بعد ان تمرَّد الجنود وقتلوا ضباطهم « ان الحكومة قد تخلصت الآن من الدسائس الخفية بهمة جنودنا الابطال » وقالت سربستي « ان هؤلاء الخبثاء (تريد اعضاء جمعية الاتحاد والترقي) ارادوا ان يستخدموا جيشنا المقدس لاغراضهم النجسة ولكن ابناء جيشنا الباسل علموا امس الدرس الذي يستحقونهُ » . وقالت جريدة ميزان « ان الجنود العثمانية التي يضرب المثل ببسالتها اظهرت امس فضيلة لم يشهد التاريخ مثلها فنحن وقراؤنا نعانق هؤلاء الابطال » . وقالت جريدة التيولوشس اليونانية « ان الجيش نال جزاء وطنيتهِ ويجب ان يذكر يوم ١٢ ابريل سنة ١٩٠٩ بالفخر والتمجيد كما يذكر يوم ٢٤ يوليو سنة ١٨٠٨ . ولقد كان الداعي الذي دعا الجيش الى هذا العمل حبهُ لوطنهِ لاغير فانهُ استلَّ السيف وطلب محو هذا الحكم الخبيث الذي تئن المملكة تحتهُ وتوطيد الدستور الحقيقي والحرية »

وقالت جريدة البروسس « ان الجيش برهن ايضاً انهُ حقيق بما يصفهُ التاريخ بهِ وانهُ مخزٍ بفضائل ظهرت في اليومين الاخيرين على صورة تستدعي اعجابنا كما تستدعي احترامنا وثقتنا »

ثم ان الجنود الذين اشتركوا في هذه الفتنة في الاستانة وكانوا ينادون بالشريعة لم يكن غرضهم دينياً على ما يظهر لانهم لم يعتدوا على المسجيين بل على المسلمين فتركوا محرري الجريدة

اليونانية التي كانت تذمهم قبل ذلك بايام وحاولوا قتل حسين جاهد الذي كان يمدحهم ويدافع عنهم من انتقاص الجريدة اليونانية لهم

قال الكاتب وكان حاضراً في حادثة ١٣ ابريل كما سيجيء انهُ سمع الجنود يقولون ايأكم ولابسي البرانيط فلا تمسوا احداً منهم بسوء . وكانوا يكررون ذلك حرفياً كأنهُ آية منزلة دليلاً على انهم لُقنوهُ تلقيناً من مدبري الفتنة ولولا ذلك لاعتدوا على الاوربيين قبلما اعتدوا على غيرهم . ولاحظ انهم كانوا يعترضون على من يرونهُ لابساً قبَّعة (ياقة) اوربية من المسلمين ورموا امرأة مسلمة وقصوا شعرها بدعوى ان مشيها في الشارع مخالف للشريعة . ثم ان السرعة التي فشت فيها الفتنة دليل قاطع على انها كانت مدبرة . وذكر من اسبابها اولاً ان انقلاب يوليو السابق حرم خمسين الفاً من الجواسيس من اسباب معيشتهم . وثانياً ان الحكومة الدستورية اطلقت المسجونين كلهم لانها لم تجد وجهاً لاطلاق المسجونين السياسيين غير اصدار العفو العام وكان بين المسجونين كثيرون من الاشقياء والبهال الذين يشتركون في كل ثورة . وثالثاً ان الغاء جوازات السفر اغرى كثيرين من الشطار بالمجيء الى الاستانة . ورابعاً ان الخالعين ونحوهم من الذين شاركوا في الاعتصاب ضد الثما حسبوا انهم صاروا اصحاب الحول والطول وطلبوا جانباً من التعويض الذي ادتهُ الحكومة الثمسوية ويظن الكاتب ان الحكومة العثمانية اعطتهم شيئاً منهُ سراً فزادوا جرأة وثقة وضعف شأن الحكومة في عيونهم وصاروا هم وامثالهم يحملون البيارق ويخرجون في المراكب ويشدون الاناشيد الحماسية وكان كبار رجال الحكومة يبشون في وجوههم ويخرجون من بيوتهم لمقابلتهم ويشكرون لهم صنيعهم

ولما قتل حسن فهمي محرر مرسبتي اجتمع جمع غفير جداً من الغوغاء امام الباب العالي وارسلوا الى حلمي باشا يدعونهُ لمقابلتهم فرفض مقابلتهم اولاً ولكنهم اصروا على طلبهم وتهددوهُ فخرج وكلمهم بلطف قائلاً لهم يا اولادي ووعدهم بان يبذل جهدهُ في اكتشاف القاتل وان العدل يجري مجراهُ . ومضت الغوغاء وطلبوا مقابلة احمد رضا رئيس مجلس المبعوثان فكلمهم من الشباك قائلاً ان قوانين المجلس تحظر عليهِ الخروج منهُ اليهم

ورأى جنود الاستانة فرقاً كبيراً بين العصر الماضي والعصر الحاضر ففي الماضي لم يكونوا يخرجون للتمرُّن (المناورات) كل يوم ولم يكن يُطلب منهم ان يقتلوا دواماً ويقتلوا ثيابهم وكان ضباطهم كثيري التساهل ولا سيما المرتشون منهم من تحت السلاح فرشوة قليلة يتجاوزون عن كل زلة . اما الآن فصار الضباط من المتعلمين المرتقين واكثرهم متعلم في المانيا ونصف

كلامهم بالالمانية واعتقادهم الديني ضعيف لا سيما وانهم يعلقون على جدران غرفهم صور النساء العاريات بدل الآيات القرآنية

وكان الوعاظ (الخوجات) يقولون للجنود ان هؤلاء الضباط فاسدو العقيدة وقد الفوا جمعية مرادها ان ترفع اسم الخليفة من الخطبة وتوجب على المحلين لبس البرانيط . وكان العثمانيون عموماً قد حسبوا ان الدستور يصلح البلاد حالاً ويدرّ عليها الخيرات فلما مضت سنة ولم يفعل خامرهم الريب في نيات المتولين امرهُ

ومن رأي الكاتب ان هذه الامور جرت كلها والحكومة غافلة عنها فان رفعت باشا قال في احدى السفارات في ١٢ ابريل ان الامن ضارب اطنابهُ في الاستانة وفي كل جهات السلطنة . ولكن يلدز لم تكن غافلة ويقال انهُ لما دعي البرنس عزيز للعشاء في يلدز في ١١ ابريل قال نساء السراي للبرنس زوجتهِ انهُ لا بدَّ من حدوث حادث في الاستانة قريباً فعليها ان تهرب منها باسرع ما يكون . ولكن ان كانت الحكومة غافلة او متغافلة فجمعية الاتحاد والترقي لم تكن غافلة ولا متغافلة معها قال رفعت باشا . والظاهر انها كانت تتأهب لمقاومة الفتنة فاطلعت في ١٢ ابريل انها ابطلت هيئتها السرية وصارت حزباً سياسياً عادياً ولعلها فعلت ذلك دفعاً لما كانت توجس وقوعهُ قبل مجيء رجالها من سلانيك

وهنا وصل الكاتب الى ما رآهُ في ١٣ ابريل اول يوم من ايام الفتنة فوصفهُ وصفاً مسهباً جداً . كان مقيماً في روملي حصار طريق الفراش فلما شفي خرج للنزهة في ١٣ ابريل هو وصديق لهُ اسمهُ الن رمسن فسمع رجلاً شيئاً من الاتراك يقول لصديقهِ لقد نتج باب جهتم في اسطنبول وايد معطي تذاكر المرور في السفور هذا الخبر فاستغربهُ الكاتب اشد الاستغراب ورأى انهُ يجب عليهِ كصحافي ان يسرع الى حيث نشب القتال . وسمع في الطريق من الذين كانوا يكلمونهما من الترك واليونان ان الجنود قتلوا رجال جمعية الاتحاد والترقي والوزراء وانهم محيطون الآن بالباب العالي وبمجلس المبعوثان وانهم عازمون على نهب بيرا ولا يأمن احد على حياتهِ . ولما وصلا الى اقرب محطة من اسطنبول قال المستر رمسي انهُ عازم ان ينزل ويركب مركبة ويذهب الى بيت امهِ في تقسيم لانها كانت ساكنة هناك ليهرب بها فسمعهُ رجل تركي يقول ذلك فقال لهُ لا تخف على امك لان ليس غرضنا مهاجمة البيوت وسمعهم ضابط شاب فقال لا تخافوا من هذه الحركة لاننا نستطيع ان نأتي بعشرين الفاً من الجنود حالاً . وكان هناك حمالون من الاكراد فلما سمعوا ما دار بينهم من الحديث ابرقت اسرتهم ووقفوا يتآمرون وكأنهم قالوا هذه فرصة سانحة لهم للنهب والسلب ثم نزلوا واسرعوا

نحو محل الفتنة من غير ان يتنازلوا لاخذ تذاكر المرور على الكبري (الجسر)

وهنا اسهب الكاتب في لوم الحكومة لانها لم تقمع الفتنة قبل استفحالها بل قبل حدوثها وذكر ما كتبهُ محمود مختار باشا عنها في يتي اسبر بسلانيك بعدها بايام ويظهر منهُ جليًّا انهُ كان في الامكان قمع الفتنة عند اول حدوثها لو استعملت الوسائل الفعالة ولكن ارسل اليهِ ناظر الحربية تلغرافًا الساعة الخامسة صباحًا يخبرهُ فيهِ بحدوث التمرُّد فلم يصلهُ الاَّ الساعة السابعة . وجرت وسائل قمع الفتنة على هذا النسق من الابطاء . وزد على ذلك ان الجنود الذين تمرَّدوا لم يتمرَّدوا كلهم دفعة واحدة ولم يجتمع منهم في ساحة ايا صوفيا اكثر من الف عسكري حتى الساعة التاسعة صباحًا كأن بقية الحامية لم تكن قد صممت حينئذٍ على التمرُّد . ولما وصل كاتب الكتاب الى تلك الساحة الساعة الرابعة بعد الظهر وجد فيها نحو سبعة آلاف من الجنود امام مجلس المبعوثان والسلاح قليل معهم حتى لو هاجمتهم قوة مسلحة حينئذٍ لتغلبت عليهم حالاً . ولما بلغهم ان جنود السرعسكرية قادمة عليهم من الجهة الاخرى وقع الاضطراب فيهم وحاول بعضهم الفرار . وهذا رأي حلمي باشا ايضًا كما صرَّح بهِ للكاتب في ١١ يونيو . ومن رأي الكاتب ان الوزارة كانت تكل الامر الى الجمعية والجمعية تكل الامر الى الوزارة فكانت النتيجة ان اهمل الفريقان ما يطلب منهما هذا اذا لم تكن الجمعية قد قصدت التغاضي عن الفتنة الى ان تستفحل فتتوسل بها الى خلع عبد الحميد واستئصال آثار حكومتهِ . ولكن الظاهر ان الخرق اتسع اكثر مما كانت تظن واشترك في الفتنة الجنود العيادة (شاسر) الذين لم تكن تظن انهم يشتركون فيها

ومما ذكرهُ الكاتب معجبًا بهِ ان الذين كانوا يروونهُ في ساحة ايا صوفيا كانوا يحضونهُ على الخروج منها لئلاَّ يعرض نفسهُ للقتل . قال لهُ إمام ابيض اللحية موبخًا انك شاب فعلى مَ تلقي بنفسك في التهلكة وهذا كان لسان حال كل الذين تكلموا معهُ اما هو فكان يشعر ان لا خوف عليهِ لانهُ لم يرَ حينئذٍ مثل ما ابداهُ الطغام في مذابح الارمن منذ ثلاث عشرة سنة . وبينما هو يمشي على حذر سمع صوت مركبة قادمة فالتفت كل احد ليرى من فيها واذا بهِ الامير محمد ارسلان مبعوث اللاذقية وتدل بشاشة وجههِ على انهُ لم يكن يدري شيئًا مما هو حادث

وكان جماعة من الكبراء في قاعة مجاورة للصدارة وبينهم احمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثان ورئيس جمعية الاتحاد والترقي وكان بينهم ايضًا سكرتير الصدر الاعظم وناظر الاوقاف . وبقي احمد رضا هناك الى الساعة الثانية بعد الظهر وبلغهُ حينئذٍ ان الوزارة عازمة على الاستعفاء فكتب استعفاءهُ هو ايضًا وقال فيهِ « اني قد ضحَّيت حياتي حتى الان

لاجل بلادي ومن حيث اني انا المقصود بهذه الحركة فاقدّم استعفائي من رئاسة مجلس المبعوثان حبًا بمصلحة الوطن » . وانتقد الكاتب صورة هذا الاستعفاء وقال انهُ لو وقف ادمند بُرك (السياسي الانكليزي) هذا الموقف لكتب شيئًا يخلد ذكرهُ مدى الادهار

وكان امام الباب العالي في عطفة شارع ضيق جماعة من الاتراك فاسرع الكاتب اليهم ليقف معهم واذا هو بطلقات كثيرة متتابعة والمرجح انها الطلقات التي أردت الامير محمد ارسلان كما سيجيء فاندفع الجمع الى الجهة التي كان فيها كالسيل الجارف وجرفهُ معهُ فلم يشعر الاَّ وهو امام باب جريدة ثروة الفنون فدخلهُ واقفل الباب وراءهُ . وحاول الجمع فتحهُ فلم يستطع

وبعد مدة فُتح الباب فخرج واذا الجمع لم يزل واقفًا حيث كان فوقف معهُ وحينئذٍ اقبل بعض الجنود المتمردين فوقف الشرطي الذي كان هناك وسلَّم بالاحترام واشار بيد مرتجفة الى ساحة ايا صوفيا . وسرَّ الصدر الاعظم بركبتهِ فلم يلتفت اليهِ احد اما احمد رضا فخرج خفية من باب سري لانهُ رأى اثنين من المتمردين واقفين امام الباب الكبير وبندقية كلٍّ منهما في يدهِ وهما ينتظران خروجهُ ليفتكا بهِ . وبين الساعة الثالثة والرابعة تمكن الكاتب من الوصول الى ساحة ايا صوفيا بعد عناء شديد فرأى هناك نحو سبعة آلاف من الجنود وهم ينادون اقتلوا رجال الجمعية اقتلوا احمد رضا اقتلوا حسين جاهد . ولما رأى انهُ يتعذَّر عليهِ ان يشاهد ما يريد مشاهدتهُ وهو واقف بين الجمع صعد على شجرة ووقف بين اغصانها فسمع النداء يتكرَّر لاجل الدستور والشريعة والسلطان ولكن كان النداء لاجل الشريعة والسلطان اكثر من النداء لاجل الدستور وكان بين الجنود قليل من الخوجات ورجال المكتبة . وقد اظهر التحقيق بعد ذلك انهُ كان بينهم عاطف بك الذي كان سابقًا مدير السجلات في المدرسة الحربية واحسان بك رئيس سكرتيرية ناظر النافعة والاميرالاي محمد بك ورفيق باشا الذي كان من اكبر الجواسيس في العهد السابق والخوجه عاكف افندي وكان يوزع على المتمردين منشورات تحضهم على التمرُّد وكثيرون من السفطاء جاؤوا سائرين سير الجنود من مدفن السلطان محمود ثم جاء جمهور من العلماء ووراءهم تلامذة مدرسة بايزيد وغيرها من المدارس

وهنا يترجم الكاتب ما نشرهُ بابان زاده اسمعيل حقي مبعوث بغداد في جريدة طنين عما حدث داخل مجلس المبعوثان وعن مقتل الامير محمد ارسلان . وسنلخص ذلك مع ما لخَّصهُ في الجزء التالي